جامعة الشهيد حمّه لخضر – الوادي

معهد العلوم الإسلاميّة

قسم أصول الدّين

السداسي الثاني **مقياس:** توجيه القراءات

التوجيه البلاغي للقراءات القرآنيّة عند المفسّرين

د. الصادق ذهب

السنة الدراسية: 2022/2021م

تمهيد

بسم الله الرحمن الرّحيم، وبه نستعين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أيها الطلبة الأكارم ارتأينا أن نخصّص السداسي الثاني للتوجيه البلاغي، وذلك لأهمّية البلاغة وعلاقتها بالقرآن الكريم وقراءاته، فعلم البلاغة كما قال أبو هلال العسكري: "...به يُعرف إعجاز كتاب الله تعالى من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وجودة الألفاظ، وغير ذلك من محاسنه التي عجز الخَلق عنها، وتحيّرت عقولهم فيها...". وله بعد هذا الفضل الكثير من الفوائد النافعة والفرائد الممتعة، فهو ينمي ملَكَة الإبداع والإنشاء، ويوجّه المبدع إلى الإفصاح عن مراده في أسلوب جيد، يجمع سمات الحُسن، ويحظى بالقبول والتأثير، ويسلَم من العيوب.

لهذه الأهداف السامية بدأ البحث البلاغي مبكّرا مع بداية الحركة العلميّة في رحاب الحضارة الإسلامية العتيقة، وغاص في أعماقه مختلف العلماء من لغويّين، وفقهاء، ومفسّرين...، حتّى أُسّست قواعده، وآتى أُكله ثمرات مختلفا ألوانها؛ كشفا عن أسرار النّظم القرآني وقراءاته، وبيانا لدلائل إعجازه.

وتتضمّن هذه الصفحات نماذج مختارة من التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية عند المفسّرين.

ولن نستطيع في هذه الصفحات المعدودات حصر جميع الصور البلاغية التي وردت حين توجيه القراءات عند المفسرين، ولكن سنحاول عرض بعض النماذج المختلفة لهذا النوع من التوجيه، وما تُحدثه من أثر في إعجاز النص القرآني.

التوجيه البلاغي لظاهرة الالتفات في القراءات القرآنية

إنّ الالتفات من أضرب البلاغة العربيّة عدّه البلاغيّون من محاسن اللّفظ ورونق الأسلوب، فقد عرفوه قديما وحديثا، وحدّدوا له أنواعا وصورا، و تعتبر ظاهرة الالتفات من أوائل الظواهر اللغوية التي جلبت وشدّت انتباه الموجهين للقراءات القرآنية، فأكثروا الحديث عنها، سواء في مستواها النحوي أو البلاغي؛ يقول الأستاذ أحمد سعد محمد: "أمّا بحث هذه الظاهرة في توجيه القراءات فيكاد يمثّل في الواقع بحثاً في نشأة الفن وتطوره؛ إذ جاء الاهتمام به في تراثنا مواكبا لأوليات البحث في توجيه القراءات والاحتجاج لها..." ، بل هي من أوائل الظواهر اللغوية التي لفتت عموم البلاغيين في مطلق كلام العرب وليس في القراءات القرآنية فقط، فقد نبّه المبرّد(285هـ) في الكامل إلى هذا الأسلوب عند العرب قديما، بقوله: "والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب".

أولا- تعريف الالتفات:

عرّف السيوطي الالتفات بقوله: "نقل الكلام من أسلوب إلى آخر، أعني من التكلّم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها، بعد التعبير بالأوّل". كما عرّفه بعض المعاصرين بقولهم: "هو المخالفة بين الضمائر". والمقصود من قولهم (الضمائر)، هو الغيبة والخطاب والتكلّم.

ثانيا- أقسام الالتفات في القرآن الكريم:

أقسامه في القرآن الكريم باعتبار التنقل بين الخطاب والغيبة والتكلم ستّة هي:

- التنقّل من التكلم إلى الخطاب، كقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[يس: 22]، والأصل أن يقول: (وإليه أرجع).
- من التكلم إلى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾[الكوثر: 1-2]، والأصل أن يقول: (فصل لنا).
- من الخطاب إلى التكلم، كقوله تعالى : ﴿قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ [يونس: 21]، "على أنه سبحانه نزّل نفسه منزلة المخاطَب، فالضمير في (قل) للمخاطَب، وفي (رسلنا) للمتكلم".
- من الخطاب إلى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَاب﴾[الزخرف: 70-71]. فانتقل عن الخطاب إلى الغيبة ولو رُبط بما قبله لقال: ﴿ يُطَافُ عَلَيْكُمْ﴾؛ لأنّه مخَاطَبٌ لا مُخْبَرٌ ثمّ التفت فقال: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فكرّر الالتفات.
- من الغيبة إلى التكلّم، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً﴾[فصلت: 12]، والأصل أن يقول: (وزيّنَ تبعا لأوحى).
- من الغيبة إلى الخطاب، كقوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء ﴾[الإنسان: 21-22]، والأصل أن يقول: (كان لهم).

ثالثا- بعض الفوائد البلاغيّة لأسلوب الالتفات في القرآن الكريم:

يقول الشيخ ابن العثيمين في بيان بعض الفوائد العامة للالتفات في القرآن الكريم:

"وللالتفات فوائد منها:

1- حمل المخاطب على الانتباه لتغير وجه الأسلوب عليه.

2- حمله على التفكير في المعنى؛ لأنّ تغيير وجه الأسلوب، يؤدي إلى التفكير في السبب.

3- دفع السآمة والملل عنه، لأنّ بقاء الأسلوب على وجه واحد، يؤدي إلى الملل غالبا.

وهذه الفوائد عامة للالتفات في جميع صوره، أمّا الفوائد الخاصة فتتعيّن في كل صورة، حسب ما يقتضيه المقام". ونذكر من هذه الفوائد والأغراض الآتي:

- **التعظيم:** كما في قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾[النساء:64] قال الزمخشري : " ولم يقل : واستغفرت لهم ، وعدل عنه إلى طريقة الالتفات؛ تفخيما لشأن رسول الله ﷺ وتعظيما لاستغفاره".

التوبيخ والإنكار: كما في قوله تعالى : ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾[مريم:88- 89]

قال الزركشي : "عدل عن الغَيبة إلى الخطاب؛ للدلالة على أن قائل مثلِ قولهم ينبغي أن يكون موبخا ومنكرا عليه، ولما أراد توبيخهم على هذا أخبر عنه بالحضور [أي: بالخطاب]، فقال: ﴿ جِئْتُمْ ﴾؛ لأنّ توبيخ الحاضر أبلغ في الإهانة له".

- **التَّنْبِيهُ عَلَى مَا حَقُّ الْكَلَامِ أَنْ يَكُونَ وَارِدًا عَلَيْهِ** : كقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[يس: 22]، أَصْلُ الْكَلَامِ: (وَمَا لَكَمَ لَا تَعْبُدُونَ الَّذِي فَطَرَكُمْ) وَلَكِنَّهُ أَبْرَزَ الْكَلَامَ فِي مَعْرِضِ الْمُنَاصَحَةِ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يُرِيدُ مُنَاصَحَتَهُمْ ؛ لِيَتَلَطَّفَ بِهِمْ وَيُرِيَهُمْ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ لَهُمْ إِلَّا مَا يُرِيدُ لِنَفْسِهِ ؛ ثُمَّ لَمَّا انْقَضَى غَرَضُهُ مِنْ ذَلِكَ قال: (وإليه ترجعون)؛ لِيَدُلَّ عَلَى مَا كَانَ مِنْ أَصْلِ الْكَلَامِ وَمُقْتَضِيًا لَهُ ثُمَّ سَاقَهُ هَذَا الْمَسَاقَ إِلَى أن قال: (إني آمنت بربكم فاسمعون) .

- **الدَّلَالَةِ عَلَى الِاخْتِصَاصِ:** كَقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ...﴾، فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ سَوْقُ السَّحَابِ إِلَى الْبَلَدِ الْمَيِّتِ وَإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا بِالْمَطَرِ دَالًّا عَلَى الْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا غَيْرُهُ، عَدَلَ عَنْ لَفْظِ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ؛ لأنه أدخلَ في الاختصاص وأدل عليه: [سُقْنَا، أَحْيَيْنَا] .

ومما يقرب من الالتفات الانتقال من خطاب الواحد والاثنين والجمع إلى خطاب آخر وهو ستة أقسام: الانتقال من خطاب الواحد لخطاب الاثنين، و من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع، ومن الاثنين إلى الواحد، ومن الاثنين إلى الجمع، ومن الجمع إلى الواحد، ومن الجمع إلى التثنية.

ومما يقرب من الالتفات أيضاً الانتقال من الماضي أو المضارع أو الأمر إلى آخر، من الماضي إلى الأمر، ومن المستقبل إلى الأمر، ومن الماضي إلى المستقبل، ومن المستقبل إلى الماضي.

نماذج من الالتفات في القرآن وتوجيهه عند المفسرين

النموذج الأول:

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[البقرة: 281]

الكلمة القرآنية : ﴿ تُرْجَعُونَ﴾

القراءات: قرأ العشرة ﴿ترجعون﴾ بالخطاب واختلفوا في ضبطها، فأبو عمرو بفتح التاء وكسر الجيم ﴿تَرجِعون﴾ على البناء للفاعل، والجماعة بضم التاء وفتح الجيم ﴿تُرجَعون﴾ على البناء للمفعول. وقرأ الحسن: (يُرْجَعُونَ) بالياء، على معنى يرجع جميع الناس.

أقوال المفسرين في توجيهها:

جاء عند الزمخشري قوله: "وقُرئ: (يُرجعون) بالياء على طريقة الالتفات "، أي الالتفات من المخاطبة إلى الغيبة، وهذا ابن عطية أبان عن الغرض من هذا الالتفات عند ذكره للقراءة، فقال:" قال ابن جنّي: كأنّ الله تعالى رفق بالمؤمنين على أن يواجههم بذكر الرجعة ؛ إذ هي ممّا تنفطر له القلوب. فقال لهم: (وَاتَّقُوا يَوْماً)، ثم رجع في ذكر الرجعة إلى الغيبة رفقا بهم "، وقبلها أشار إلى الغرض من الخطاب في القراءة بالتاء؛ حيث قال: "المخاطبة في القراءتين بالتاء على جهة المبالغة في الوعظ والتحذير".

النموذج الثاني:

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾[آل عمران: 13].

الكلمة القرآنية : ﴿ يَرَوْنَهُمْ﴾

القراءات: قرأ نافع وأبَان عن عاصم **(تَرَوْنَهُمْ)** بالتاء المنقطة من فوق، والباقون **(يَرَوْنَهُمْ)** بالياء.

أقوال المفسرين في توجيهها:

قال ابن القيم في توجيه قراءة الياء:" وقد قرأ نافع:(ترونهم) بالتاء. قال ابن الأنباري: ذهب إلى أنّ الخطاب لليهود. قال الفراء: ويجوز لمن قرأ (يرونهم) بالياء أن يجعل الفعل لليهود، وإن كان قد خاطبهم في قوله تعالى: (قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ)؛ لأنّ العرب ترجع من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى الخطاب.

وقال القرطبي موضّحا معنى القراءتين : (تَرَوْنَهُمْ) بالتاء جرى على الخطاب في (لكم)، فيحسن أن يكون الخطاب للمسلمين، والهاء والميم للمشركين. وقد كان يلزم من قرأ بالتاء أن يقرأ مثليكم بالكاف، وذلك لا يجوز لمخالفة الخط، ولكن جرى الكلام على الخروج من الخطاب إلى الغيبة، كقوله تعالى: (وما آتيتم من زكاة)، فخاطب ثم قال: (فأولئك هم المضعفون) فرجع إلى الغيبة. فالهاء والميم في (مثليهم)

يَحتمل أن يكون للمشركين ؛ أي ترون أيها المسلمون المشركين مثلي ما هم عليه من العدد، وهو بعيد في المعنى؛ لأنّ الله تعالى لم يُكثِّر المشركين في أعين المسلمين ، بل أعلمنا أنّه قللهم في أعين المؤمنين، فيكون المعنى ترون أيها المؤمنون المشركين مثليكم في العدد وقد كانوا ثلاثة أمثالهم، فقلّل الله المشركين في أعين المسلمين فأراهم إياهم مثليْ عِدّتِهم لتقوى أنفسهم ويقع التجاسر، وقد كانوا أُعلموا أنّ المائة منهم تغلب المائتين من الكفار، وقلّل المسلمين في أعين المشركين ليجترءوا عليهم فيَنفُذُ حكمُ الله فيهم. ويَحتمل أن يكون الضمير في (مثليهم) للمسلمين، أي ترون أيها المسلمون المسلمين مثليْ ما أنتم عليه من العدد ؛ أي ترون أنفسكم مثليْ عددِكم، فعَل الله ذلك بهم لتقوى أنفسُهم على لقاء المشركين. والتأويل الأول أوْلى، يدل عليه قوله تعالى: (إذ يريكهم الله في منامك قليلا)، وقوله: (وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا)[الأنفال: 43-44].

شبهة حول الالتفات في القرآن:

يستمر عباس عبد النور في تخطئة أسلوب القرآن الكريم فيزعم أنّ باب الالتفات (أي تغيُّر الضمير نفس الجملة من الخطاب للغيبة مثلا، أو من الغيبة إلى التكلم... الخ) قد اخْتُرِع لتغطية العيب الموجود في آية "يونس" وأمثالها، وهذا نصّ الشّبهة:" إنّ نقطة الضّعف بل والركاكة في الآية السابقة هي سوء استعمال الضمائر إساءة من شأنها إحداث اختلال في السياق. إنّ سوء استعمال الضمائر إذا صدر عنّي أو عنك نسبونا إلى الجهل. واتّهمونا بنقص معلوماتنا اللغويّة، ونصحونا بدراسة علم الصّرف والنّحو من جديد. وأمّا إذا صدر ذلك عن القرآن فهو من البلاغة، بل أفردوا له بابا من أبواب البلاغة. ويهمنا من هذه الأبواب هنا باب الالتفات، ودونكم الآية السابقة مرّة أخرى لتروا موضع الخلل فيها. هذا ما لم تكونوا قد تنبّهتم له من تلقائكم؛ لأنه اختلال صارخ لا يمكن أن يمرّ عليه السامع من غير أن يحس بنشاز في أذنيه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ (بدلا من وجرين بهم) بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا (وفرحوا بدلا من وفرحتم) جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [يونس: 22]"، ثمّ يقول: "صدّقوا أولا تصدّقوا أنّ هذا النّشاز من بلاغة القرآن. فلولا الأعرجان ما ظهرت بلاغة القرآن، إنّه ليس نشازا إلّا في عقولنا المعوجّة، وإنّما هو التفات، والالتفات باب من أبواب البلاغة اختُرِع ليكون مخرجا لهذه الآية وأمثالها".

الردّ عن الشّبهة:

يقول صاحب الإتقان مبيّنا نكتة هذا الالتفات:" ونكتةُ العدول عن خطابهم إلى حكاية حالهم لغيرهم التعجّبُ من كفرهم وفعلهم، إذ لو استمر على خطابهم لفاتت تلك الفائدة. وقيل: لأنّ الخطاب أولاً كان مع الناس مؤمنهم وكافرهم، بدليل: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)، فلو كان: وجَرَيْن بكم

للزم الذم للجميع، فالتفت عن الأول للإشارة إلى اختصاصه بهؤلاء الذين شأنهم ما ذكره عنهم في آخر الآية عدولا من الخطاب العام إلى الخطاب الخاص. قلت: ورأيتُ عن بعض السلف في توجيهه عكسَ ذلك، وهو أنّ الخطاب أوله خاص وآخره عام، فأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه قال في قوله: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) - قال: ذكر الحديثَ عنهم، ثم حدث عن غيرهم، ولم يقل: (وجَرَيْنَ بكم)؛ لأنه قصد أن يجمعهم وغيرهم : وجَرَيْن بهؤلاء وغيرهم من الخلق، هذه عبارته.

فلله درُّ السلف، ما كان أوقعهم على المعاني اللطيفة التي يَدْأب المتأخرون فيها زماناً طويلاً، ويُفنون فيها أعمارهم، ثم غايتهم أنْ يحومُوا حول الحمى".

وهذا ابن عاشور عدّه من أنواع الاتفات التي لم ينبّه عليه أحد من أهل المعاني؛ حيث قال في توجيهه لهذا الالتفات: " ومن بديع الأسلوب في الآية أنها لما كانت بصدد ذكر النعمة جاءت بضمائر الخطاب الصالحة لجميع السامعين، فلما تهيأت للانتقال إلى ذكر الضراء وقع الانتقال من ضمائر الخطاب إلى ضمير الغيبة لتلوين الأسلوب بما يخلصه إلى الإفضاء إلى ما يخص المشركين فقال: وجرين بهم على طريقة الالتفات، أي وجرين بكم. وهكذا أجريت الضمائر جامعة للفريقين إلى أن قال: فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق فإن هذا ليس من شيم المؤمنين فتمحّض ضمير الغيبة هذا للمشركين، فقد أخرج من الخبر من عدا الذين يبغون في الأرض بغير الحق تعويلا على القرينة ؛ لأن الذين يبغون في الأرض بغير الحق لا يشمل المسلمين. وهذا ضرب من الالتفات لم ينبه عليه أهل المعاني وهو كالتخصيص بطريق الرمز".

يعيب هذا المسكين الآية الكريمة ويتهمها بالركاكة والضعف والخطأ لاستعمالها هذا التركيب، ولم يدر أنّ مثل هذه التراكيب موجودة في الشعر العربي الجاهلي، وكذلك في اللّغات الأخرى، وأمثلتها كثيرة يضيق بنا المقام لبسطها، ولكن ألا يدري صاحبنا بأنّ في كلامه التفات من المتكلم إلى المخاطب فانظر معي عزيزي الطالب ذلك: "...ويهمّنا من هذه الأبواب هنا باب الالتفات، ودونكم الآية السابقة مرّة أخرى لتروا موضع الخلل فيها. هذا ما لم تكونوا قد تنبّهتم له من تلقائكم ". فالأصل أن يقول (ودوننا بدل ودونكم)، وأن يقول: (لنرى بدل لتروا)، وأن يقول: (ما لم نكن قد تنبّهنا له من تلقائنا)، فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا.